منطقة أحفاد الزواوة بين سماحة الهلال وغزو الصليب.

قبايلي عبد الغني/جامعة مولود معمري تيزي وزو

افتتاحية: تعتبر منطقة القبائل في الفترة الراهنة من أكثر المناطق شهرة في بلاد المغرب العربي الكبير، فضلا عن الأمة الجزائرية الأصيلة، وتستمدّ شهرتها من إثارتها لعدد كبير جدًّا من القضايا المختلفة والمتنوّعة وعلى جميع الأصعدة، ويبدو جليًّا من الوهلة الأولى أن نوع ونوعية هذه القضايا المثارة تأخذ تصنيفات تترتّب على حسب متناوليها؛ فمنهم من يتناولها من الوجهة الجدلية مستغلاًّ في ذلك النشاط الدؤوب للمنطقة بهدف تمرير وابتكار أفكار وأطروحات بعضها خلق وتجديد وبعضها الآخر إحياء أو تبديل، وهذه الأطروحات بدأت نتائجها تظهر في شكل ظواهر منها الغريب والأجنبي عن هذا المجتمع الأبي، والآخر في حلّة فتن حاقدة تروم زعزعة استقرار هذا البلد العظيم، [1] أمّا الذين تناولوها من الوجهة الموضوعية فإنّ كنوز أعمالهم لا تتوقف عن إمداد الشخصية الوطنية والدينية والتاريخية وتعزيزها بحقائق ترسخ أصالة المنطق بشكل خاص والبلاد في العموم، فالكشف عن البراقع التي تتستّر ورائها الحقائق الثمينة هو المطلوب وهو المنادى وإذا تمّ الأمر على هذه الوتيرة فإنّها في

[1] انظر في ذلك مثلا أخبار بعض الجمعيات التي سيتمّ ذكرها في العنصر الرابع من هذا المقال.

الحقيقة المصقاعة كشف عن الأهمية الجليلة والقيمة العزيزة لكلّ فرد جزائري، لذلك فإذا منطقة القبائل لا تختلف عن أي منطقة أخرى في ربوع هذا الوطن لأنّها من الناحية الثقافية مخزون عظيم من الثقافة والعادات والتقاليد والتراث الموصول بين السلف والخلف في تناغم وتواصل متكامل[1]، وبذلك فقد أصبحت ملاذًا مغر للأنتربولوجيين والمؤرّخين واللسانيين ودارسي الاجتماع من كلّ حدب وصوب، [2] وكلّ هذه الجهود المتناسقة إنّما تهدف إلى جمع التراث الثقافي للجزائر دون أي إقصاء أو تصغير واحتقار لأيّ عرق أو لغة أو ثقافة، ولا يختلف هذا الجو النشيط عن المنزع السياسي؛ فمن هذه الناحية الأخيرة تعتبر بلاد القبائل دليلاً واضحًا على المستوى العالي لحرية الأفراد في الجزائر وبلوغ نسبة مقبولة جدًّا من الديمقراطية التي حاولت الدولة تكريسها منذ الاستقلال، وبالتالي فإنّها ساهمت بشكل معتبر في بناء التجربة السياسية للجزائر، كما أن الجانب التاريخي —مفخرة الجزائر– فإنّها متحف مفتوح على العالم، وكتاب يجمع ويلخص كلّ أمجاد الجزائر التاريخية، فكلّ هذه العوامل المكوّنة للشخصية الجزائرية الحقيقية لا تكتمل إلاّ بتدعيمها بالجانب الاجتماعي والممارسة الدينية، هذه الأخيرة التي تعتبر من أكثر المناطق تمسّكًا بانتمائها الديني وتجسيد مبادئها الاجتماعية، وهي صورة سينماتوغرافية مصغّرة لقدرة الشعوب على

---

[1] وهذا ما نلاحظه في الاهتمام الخاص بالتحراث الأمازيغي الذي توليه الدولة الجزائرية في الفترة الراهنة.

[2] إلاّ أنّه يجب تمحيص ما نقرأه من الكتب الثقافية والأنتروبولوجية خصوصًا ما هو مكتوب باللغة الفرنسية حول هذه المنطقة وفي مرحلة الاستعمار، لأنّ أغلب الكتب التي نشرت في هذه المرحلة قد حاول خدمة المشروع الاستعماري.

الصمود أمام الهيعات[1] المقصودة والهزّات المتتالية لمتسّك الأمم بأصولها ولكن هذه الفكرة فيما تبدو عليه من وصف محلّ نظر عند بعض الناس، فمنهم من يرى بصحتها ويلتمس لها ألف دليل وبرهان، وهناك من يقرأها من الجانب الذاتي ويعتبرها فاصلة في سلّم الأغاليط، وبين هذا وذاك يأتي هذا البحث ليحاول بعزيمة الانطلاق من الواقع ليفرّق بين البيان والهذيان.

أ)– **مقدمة**: إنّ أطروحة التنصير أو الردّة والكفر في منطقة القبائل أطروحة تذكرنا بذلك الجدال العقيم وبذلك الحدّ المفزع الذي يمكن للجاهل الحديث أن يمجّد الوهم، وينطلق من قياساته الذاتية التي تفتقر إلى أدنى دليل لبناء برنامجه العام الذي يمكن لمصير أمّة بأكملها أن تقف على توصياته، ففي الدراسات العلمية أيًّا كان نوعها لا تكتفي بأي وجه من الأوجه استقراء الكتب والقناطير المقنطرة من الأخبار الصحفية، وليس مقبولا إطلاقًا الانتقال من الحدوس البسيطة الأولية إلى طرح نتائج تخمينية قد تؤدّي غلى هلاك أمّة بأكملها، إنّما العلم الحقيقي والطرح الموضوعي هو الذي ينطلق من الواقع وبتحليله وفق منهج سديد ليعود إليه إصلاحًا وجبرًا أو تدعيمًا ودفعًا نحو الأفضل، وقد قال شيوخ العلم قديمًا "**ليس الخبر كالمعاينة**" والفاصل بين الحقيقة والزيف قد يكون مقدار السبابة، لذلك فإنّ الباحث الملتزم المجدّ دائم التحرّج والتحرّز؛ لأنّ أي ملاحظة مغايرة للحقيقة قد تتحوّل إلى فتنة شعواء، هذه الأخيرة التي ما ظهرت في قوم إلاّ وذهبت بريحهم وبدّدت عصبيتهم، لذلك فإنّ القول بتنصّر القبائل أو شيوع التمسّح في هذه المنطقة تتطلّب حذرًا في بناء الموضوع علميًا وتكون

[1] العيهات مصطلح أطلقه ابن خلدون في تاريخه ومعناه "التقلّبات".

نتيجة نتوصّل إليها بعد تنقيب وبحث محيص يتأتي بعد تقليب الظاهرة –إذا وجدت بالفعل والقوّة– على أوجهها المفلوجة، من معرفة أصول الموضوع ومقدار قابليته للوصف وبتحديد المصطلحات والعبارات العلمية، ولا يجوز بأيّ شكل من الأشكال أن نقبلها كمسلمة أوّلية، وحتى لا نقع في خوض وجدل قد يذهبان بقيمة أي موقف فإنّنا سنقوم بتحديد مجموعة من المفاهيم المفتاحة ك: التنصير الردّة ومنطقة القبائل، ومن ثمّ سيتمّ الولوج إلى تسجيل وترتيب الخلفيات التاريخية للظاهرة، وتقديم إحصاءات دقيقة في صناعة التنصير وبعدها سنحلّل نتائج هذه الخلفيات في الفترة الراهنة، ومنها إلى مراجعة الوسائل التي اعتمدتها الدولة والجمعيات المحلية للتصدّي إلى هذه الظاهرة، ومن ثمّ إلى تدعيم البحث باقتراح مجموعة من الحلول الموضوعية للحدّ منها في أقصر فترة ممكنة، وغايتنا ورجاؤنا في ذلك كلّه هو تحليل الواقع وتكذيب الادّعاء الباطل لأنّ هذه الطريقة في الوصف العلمي هي من أهمّ الوسائل العلاجية المضمونة الأثر.

أ)– تحديدات اصطلاحية: من الحقائق الثابتة علميًا ومنهجيًا هو أنّ مقاربة أي موضوع أو دراسته وتحليل أي ظاهرة إنّما يبدأ من تحديد مصطلحات البحث، لذا فإنّ هذا البحث الموجز سيتحدّد إطاره المعرفي العام في حزمة من المصطلحات، هي: التنصير والردّة، ومنطقة القبائل، لذلك فإنّ مفهومه وتحديدها واستمرارها في كلّ البحث هي ما يجعلنا نلتزم بمحاور دون الأخرى، ومن تحديد أفكاره وتسلسل الحجاج، على النحو التالي:

أ– التنصير: لقد أصبح مصطلح التنصير مصطلحًا شائعًا بمعناه ومبناه عند النخبة والدهماء وبالمعنى المتواتر عليه في الأدبيات المعجمية والفقهية التراثية، فإذا عدنا

إلى لسان العرب لابن منظور فإنّ التنصير يعني "الدخول في النصرانية"[1] والنصرانية هي الكلمة المرادفة لمصطلح المسيحية، وهذه الأخيرة هي الديانة التي ألهم الله تعالى وأوحاها على النبي عيسى بن مريم عليهما السلام، وفي معجم المحكم لابن سيده "التنصير والتنصّر"[2] هو "الدخول في دين النصارى" والملاحظ أنّ المعنى لا يختلف عن السابق إلاّ أنّ صاحب المحكم زاد عليه لفظ "ونصّره جعله نصرانيًا" وفي حديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلَّم قوله: "**كلّ مولود يولد على فطرة حتى يكون أبواه اللذان[3] يهوّدانه وينصّرانه**"[4] ومعناه أنّ أيّ إنسان مفطور على خشية الله تعالى وعبادته ولكن البيئة التي يعيش فيها وبالأخص أسرته وبالدرجة الأولى الأب والأمّ هما من يغرس فيه تعاليم الدين والأخلاق واللغة والعادات والتقاليد؛ فإنّ كانا على اليهودية فإنّهما يهوّدانه أو نصارى فينصّرانه، وإذا عدنا إلى أقوال علمائنا وتحديداتهم فإنّنا نجد مصطلحًا آخر يعني ما نعنيه بالتنصير وهو الرجوع والردّة، لأنّ القول بالتنصير هو من معنى أهله، بمعنى أنّ النصارى هم من يسمى الدعوة إلى المسيحية "التنصير والتبشير"[5] أمّا المسلمون فمن خرج من الإسلام ودخل في النصرانية فهو مرتدّ أعاذنا الله جميعًا منها.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة [نصر]، دار الحديث تسع مجلّدات، مصر 2003م. ج8. ص574.

[2] المرجع نفسه.

[3] اللذان في هذا الحديث الشريف مرفوع بالابتداء؛ لأنّه أضمر في يكون، كذلك رواه سيبويه.

[4] ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص574.

[5] يرى مولود قاسم نايت بلقاسم أن التبشير كلمة شاعت واستعملت في غير معناها، لذا يرى أنّه من اللازم إعطاءها تسمية دقيقة تدلّ على المعنى الحقيق لها كالمسخ أو التمسيخ، كما اقترح

أ/ب– مفهوم الردّة: الردّة في أصل كلام العرب صرف الشيء ورجعه، وفي حديث أمّنا عائشة رضي الله تعالى عنها وأرضاها "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ" أي مردود عليه، ويقال أمرنا ردٌّ إذا كان مخالفًا لما عليه أهل السنّة والجماعة، وهو مصدر وصف به، [1] أمّا الردّة في اصطلاح شيوخ العلم فهي بدورها لا تبتعد كثيرًا عمّا عليه عند أهل اللغة، حيث إنّ التعريف الجامع والمانع لها هو "إتيان المسلم بما يقتضي كفره من قول أو فعل أو ترك أو اعتقاد أو شكّ إذا توافرت شروطه"، [11] وقد جاء في فقه السنة أنّ الردّة هي رجوع المسلم العاقل البالغ عن الإسلام إلى الكفر باختياره دون إكراه من أحد سواء أكانوا ذكورًا أم إناثًا، فلا يعتبر بارتداد المجنون ولا الصبي لأنّهما غير مكلّفين، [2] وقد حذّر القرآن الكريم والرّب العظيم من هذه الآفة في كثير من أيّه، ومنها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ

الدكتور عثمان أمين إطلاق الاستخراب أو الاستدمار على ما يسمى "الاستعمار" كما اقترح الاستاذ محمد الفاسي أن نطلق مصطلح التنفير على التبشير، ينظر: مولود قاسم نايت بلقاسم، إنّية وأصالة، دار الأمة للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر: 2007م ص450.

[1] سيّد سابق، فقه السنة. ج3، ص200.

[2] المرجع نفسه.

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[1]، وقد قال شيوخ العلم في شرح هذه الآية وتفسيرها: إنّ المقصود بقوله تعالى "فيمت وهو كافر" يعني من يرجع عن دينه، والضمير المتّصل في "دينه" عائد على الإسلام، "فيمت وهو كافرٌ" فيمت قبل أن يتوب من كفره، فهم الذين حبطت أعمالهم، يعني بقوله "حبطت أعمالهم" بطلت وذهبت، وبطلانُها: ذهاب ثوابها، وبطلان الأجر عليها والجزاء في الدنيا ودار الآخرة، ولعظيم هذه الظاهرة فقد بحث فيها العلماء العارفون قديمًا وحديثًا وقلّبوها على وجوهها فنظروا في الإشكالات الناجمة عنها، مثل: قضية استتاب المرتدّ وحكم توريثه، والمدّة المشروعة للاستتابة، فمنهم من قال: ساعة ومنهم من سمح بشهر، وتحديد بعضهم في استتاب المرتدّ بين مرّة وثلاث مرّات ومائة.[2]

ومن دون الولوج إلى التفصيلات المسهبة لأقوال العلماء في حكم الردّة فإنّ مفهوم الردّة هو رجوع المسلم العاقل عن دينه الحنيف دون إكراه، وإذا كان ذلك كذلك فإنّ منطقة القبائل على غرار باقي الجزائر هي واحدة من المناطق التي يكثر فيها الزعم على تنصيرها، ولما كان سكانها مسلمين فإنّ من تنصّر فقد خرج عن الملّة طوعًا لا إكراها، ومن كان حاله على هذا الوصف فقد كفر وارتدّ بالنص، لذلك فإنّ المصطلح الدقيق لهذه الظاهرة تكون بلفظ: الردّة في منطقة القبائل.

أ/د– منطقة القبائل: وتطلق عليها –أيضا– تسمية بلاد القبائل؛ وهي منطقة تقع شمال الجزائر يغلب عليها الطابع الجبلي وشواطئها ممتدّة على طول شريطها

---

[1] البقرة: 217

[2] سيّد سابق، فقه السنة. ج3، ص200.

الساحلي، وقد قال بعض المؤرّخين إنّ تسمية هذا الشعب بهذا المصطلح منطلق من لفظ القبائل باللغة العربية الفصيحة، وإذا كان ذلك صحيحًا فإنّ القبائل جمع مفرده قبيلة وهي عند العرب في أصل كلامهم "بنو أب أواحد"[1] وهي أقلّ من الشعب وأكبر من العمارة فالبطن ثم الفخذ، والحقيقة أنّ هذا الرأي خلافي وتفصيلي بين صنّاع التاريخ، لكن الثابت أن سكان هذه المنطقة يطلقون على هذه الأرض من الجزائر وشمال إفريقيا مصطلح "ثامورث نلقبائل" أي بلاد القبائل، كما ترد تسمية أخرى في الشعر القبائلي المحلّي والأغاني الشعبية "ثامورث نيذورار"[2] بمعنى أرض الجبال، كلّها تسميات والمسمّى واحد لهذه المنطقة التي تعدّ جزءًا من جبال الأطلس وهي في حدود البحر الأبيض المتوسط، وتشارك ولايات عديدة في تشكيل هذه المنطقة من "تيزي وزو وبجاية والبويرة وبومرداس وأجزاء مهمة من بورج بوعراريج وجيجل وسطيف، ولكن القلب النابض لهذه المنطقة هي بجاية وتيزي وزو.[3]

أ/د–أ– بجاية: وتسمّيها النخبة "بجاية الحضارة"، تقع منطقة بجاية في موقع استراتيجي، سمّاها اللاتين "**بوجي–Bougie**" الشمعة، ويطلق عليها الأفارقة لقب "**عروس البحر الأبيض المتوسط**" يحدّها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق ولاية "**جيجل**" ومن الجنوب الشرقي "**سطيف**" ومن الغرب ولاية "**البويرة**" ومن الجنوب الغربي ولاية "**برج بوعرريج**" ومن الشمال الشرقي ولاية "**تيزي وزو**"

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة [قبل]، ج7، ص231.

[2] يمكن العودة في تحقيق هذه الفترة إلى كتاب "ترجمة الشعر الأمازيغي" الذي نشره مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، دار هومه، الجزائر: 2010م.

[3] يمكن إثراء هذه الفكرة بالعودة إلى الموقع التالي: wikediafoudation.org

تتربع على مساحة(3223.50كلم^2)، وعدد سكانها (1380.000 نسمة)، بكثافة سكانية تقدّر بحوالي (276 ن/كلم^2)، وتنقسم إلى (56) بلدية موزّعة على المنطقة بالشكل الذي يظهره الجدول التالي:

ـأـ	ـآـ	ـاـ	ـبـ
– أقبو، أكفادو، أمالو – أميزور، أوزلاقن، أوقاس.	– آدكار، آغرم، آيت أرزين، آيت سماعيل.	اغيل علي، الحدّ، القصر، الواد عين النعجة.	بجاية، بني جليل، بني معوش، بني مليكش بوجليل. بو حمزة، بوخليفة
د/ درقينة. ذ/ ذرع القايد.	و/ واد غير، ك/كسيلة،	كنديرة. ل، لفلاي	م/مرباشة، مسيسنة، ملبو،
س/ سمعون، سوق أوفلة، سوق الإثنين، سيدي عياد، سيدي عيش.	ف/ فرعون، فناية الماثن، ص/صدوق،	ش/ شلاطة، شميني، شميني. شميني جنان	ت/ تازمالت، تاسكريوت، تالة حمزة، تامريجت، تاوريت أغيل، تمقرة، توجة، تيبيان، تيزي نبربر، تيشي، تيفرة، تمزريت، تينبذار. خ/ خراطة.

مدينة بجاية باللون الأحمر

خريطة بجاية [1]

أ/د–ب– منطقة تيزي وزو: تقع هذه المنطقة شرق العاصمة الجزائرية، سمّاها الفرنسيون في إطار سياسة "فرّق تسود" القبائل الكبرى، عكس القبائل الصغرى "بجاية" ومعنى هذه التسمية أنها لفظ مركّب من "تيزي" ومعناها "الهضبة" بالأمازيغية والقبائلية وسنلاحظ أن هذه التسمية كثيرة جدًّا ومتعدّدة في جلّ هذه المنطقة، وكلمة "وزو" أو "أوزو" وهو نبات ذو أزهار صفراء اللون وكثيرة الأشواك، وقد أحاط سكان هذه المنطقة هذه النبتة باهتمام كبير حيث إنّها كثيرة الورود في أشعارهم وقصائدهم، وتعتبر من أحدث الولايات في الجزائر، ومقرّ ولايتها لا يفصلها عن العاصمة إلاّ مسافة (105كلم)، وتنقسم إداريًا إلى (21 دائرة) و(67 بلدية) وأكثر من (1400 قرية)، تمتدّ على مساحة تقدّر بـ(2950كلم^2) ويبلغ عدد سكانها (1350.100نسمة) وفي الجدول التالي تفصيل لدوائرها وبلدياتها:[2]

---

[1] wikediafoudation.org

[2] wikediafoudation.org

الدوائر	البلدية	البلدية	البلدية
عين الحمام (ميشلي) عزازقة (إعزون)، بوغني، أزفون، بني يني. بني دوالة (أيث دوالة) بوزقان، ذراع الميزان ذرع بن خدّة (D.B.K). إفرحونن، مقلع، واسف. الأربعاء ناث يراثن ماكودة، معاتقة، واضية واقنون. تيغزيرت، تيزي غنيف، تيزي راشد. تيزي وزو.	تيزي وزو واسيف، أيت بومهدي، آيت تودرث، عين الحمام، أيت حمام، أيت يحي أقبيل، أيت يوسف، عزازقة فريحة، زكرى إعكورن، إيفغاء، بوغني، مزرانة، بوزغن، ويلولة أمالو، بني زيكي، بني دوالة،	مشطراس، بونوح، ة أي يوسف، ذراع الميزان، فريقات عين الزاوية، أيت يحي موسى، واقنون تمزريث، جبل عيسى ميمون، الأربعاء ناث يراثن، أيت قواشة، إرجن، أزفون، أقرو، أيت شفعة، أغريب، ذراع بن خدّة، تادميث، سيدي نعمان، ترمتين، خدّة تقزيرت، إفليس، إجر، بني عيسى، بني زمنزر، واضية	أقني، فقرات، تيزي نتلاثة، أيت بوعدو، المعاتقة، سوق الاثنين مقلع، أيت خليلي، الصوامع، بني يني يطافن، إبودرارن تيزي راشد، أيت أومالو، إفرحونن، أسوحال، إبلتن، تيزي غنيف مكيرة، ماكودة، بوجيمة. أيت حمود

ب)–العمق الحضاري والأساس التاريخي للمنطقة: إذا كل من بجاية الحضارة وتيزي وزو العريقة وباقي المناطق المجاورة تشكل ما نسميه حاليًا منطقة أو بلاد القبائل، وهذه التسمية حديثة نسبيًا لأنّها إلى أمس قريب كانت تطلق عليها تسمية "منطقة الزواوة"[1] المشهورة بعلمائها وأوليائها وزواياها، فيمكن لأيّ باحث أن يعود إلى التأثيرات العلمية المتبادلة بين الزواوة ومناطق مشهورة في العلم والأدب والثقافة مثل منطقة تيارت وحضارة بني حماد، وتلمسان التي تحي في هذه الأيام عاصمة الثقافة الإسلامية وقسنطينة وفاس والمشرق العربي وأوروبا، حتى تظهر أسماء

[1] انظر تاريخ ابن خلدون.

كثيرة جدًّا من العلماء وأولياء الله الصالحين الذين أعمروا دنيا الناس علمًا وأدبًا، وحسب أغلب المؤرّخين الموثوقين فإنّ الزواوة كم يؤكده أبو يعلى الزواوي إجماع علماء النسب على أنها من بطون كتامة التي قال عنها ابن خلدون "وأمّا تخلّقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة وما جلبوا عليه من الخلق الكريم من عزّ الجوار وحماية النزيل ورعي الأذمّة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره والثبات في الشدائد...ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثارٌ نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يؤكد أسوة لمتبعيه من الأمم، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العزّ وأوفت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدي أيديهم ومضت في الخلق بالقبض وبسط أحامهم.."[1] فمن خلال هذه الأخلاق الحميدة والخلال الطيّبة التي توارثها الأمازيغ كابرًا عن كابر وورّثوها ابنا عن أب حتى وصلت إلى الزواويين والقبائل من بعدهم، وكلّ من يمكن أن يقال حول هذا الموضوع فإنّه لن يفي بالغرض لكن البحث في الأصول العريقة لهذه الأمة الأبية يجب أن يكون في دوريات مرتّبة ومنتظمة حيث إنّ هذا الموضوع هو أكثر ما يكثر في الزلل والتغليط؛ لأنّ الحقيقة القائمة عند أهل العلم بالدليل هو أنّ كتامة شعب من شعوب اليمن العرب العرباء القحطانيين الحميريين، وحمير بن سبأ الأوّل من يشجب بن يعرب بن قحطان، والقحطانيون أعرق في العربية من العدنانيين، [2] ويمكن لأيّ باحث أن يقارن بين الخطّ الحميري والخطّ البربري ليدرك مدى التشابه الذي يصل إلى حدّ التطابق بين

---

[1] تاريخ ابن خلدون.

[2] أبو يعلى الزواوي، تاريخ الزواوة. تع: سهيل الخالدي، وزارة الثقافة، ط1: الجزائر: 2005م.

الخطّين وأسهل طريق في ذلك معجم الفهرست لابن النديم، وإذا كان ذلك كذلك — وهو كذلك– فإنّ النتيجة الحتمية عن هذا الطرح هو أنّ العرب والأمازيغ شرقًا وغربًا سواء أكانوا في اليمن أو فلسطين أو صعيد مصر أو المغرب العربي الكبير إنّما هم إخوة في الدين والديدن وأبناء أب واحد وقد اعتنقوا دينًا واحدًا على مذهب واحد تقريبًا فالأمازيغ أو البربر أو الزواوة مسلمون وسنّيون كالعرب، [1] وهذا ما يفسّره عدم انتشار اليهودية والمسيحية انتشارًا واسعًا بين البربر رغم تتالي القرون، في حين أنهم اعتنقوا الإسلام المحمدي العربي بشكل شامل في أقلّ من أربعين سنةً.

وإذا حدّدنا كلامنا في منطقة الزواوة دون المناطق الأمازيغية الأخرى فإنّنا نجد تاريخًا طويلا وحافلا لعدد كبير من المساجد والزوايا التي كانت في زمانهم بمثابة دور للعلم والجامعات والكلّيات بمصطلحات العصر الحديث، ولكن هذا التاريخ فيما يبدو يطوى ولا يروى؛ ومن أمثلة ذلك ما قاله سهيل الخالدي —محقّق كتاب تاريخ الزواوة– فإنّ هذه منطقة هي منبع الحركة القومية العربية، لذا لا يكون غريبًا جمع الاستدمار الفرنسي لكلّ قواه وجبروته وتوجيهها نحو هدم الزوايا والمساجد الذي عمّ أتربة الجزائر ومنطقة القبائل بشكل مركز ومكثّف، وشنّ حملة تنصيرية شعواء كانت من أحلك المظاهر التي ظهرت عليها البداية خطف الأولاد الصغار والجماعات ليتمّ فيما بعد مقايضة الدين بالرغيف. واشتدّ الأمر واستمرّ حتى جاءت مناسبة الحرب العالمية الأولى أين كان الأروبيون في أوجّ جبروتهم والمسلمون في أذلّ مرحلة عاشها منذ البعثة المحمدية، فسعى الصليبيون إلى تمزيقهم دينًا بالعودة إلى إحلال النصرانية وعرقيًا بالدعوة إلى الأصول البربرية المغلوطة، ونجم عن ذلك المجهود العظيم تحويل

[1] المرجع نفسه.

الزوايا وتشويشها لتظهر الطرقية[1] في الجزائر إلى أن حاربها شيخ الإسلام عبد الحميد بن باديس والدروشة في المغرب العربي، كلّ هذا والعديد غيره حتى تحوّل الجوّ في فترة وجيزة إلى عون مجاني لتحفيز الاستدمار وشيوع المسخ.

ج- الخلفية التاريخية للمسخ بالصبغة الفرنسية: من الحقائق الثابتة عند دارسي التاريخ اليوم أن التمسيخ (التنصير) بدأ ممثلا في شخص القساوسة الذين حاولوا إصباغ الاستخراب الفرنسي في مستعمراتها بصبغة "الفتح المسيحي" أو "التبشير بالخلاص" حتى تكون هذه الحركة التاريخية مقبولة في أوروبا، ويبدو أنهم أتقنوا هذا التمويه وأبدعوا فيه، وهذا الدور الكبير للقساوسة في نشر الديانة المسيحية الباطلة على أراضي الجزائر تمّ موازاة مع تعبئة الجنود وشحنهم بالروح الصليبية، ومن أبرز الأسماء المحفورة في الذاكرة الجزائرية شعبًا وتاريخًا الراهب "الكاردينال لافيجري"[2] الذي يعتبر بمجرّد وصوله إلى الجزائر عام (1867م) أكثر الناشطين المفوّضين من قبل الإدارة الفرنسية للتنصير؛ أي في عهد نابلون الثالث، كما ساهم البابا "غريغوار السادس عشر مساهمة مباشرة في تجهيز هذه الكتدرائية وتولاها لافيجري ما يقارب ربع قرن، مستغلا المجاعة التي أدّت إلى ثورة الفلاحين في منطقة القبائل بين سنتي (1866-1867م) لتمسيخ كثير من اليتامى الجزائريين الذين كانوا مشرّدين ضائعيين، وذكر هذا غوستاف لبون في كتابه "نفسية الجماهير" وأضاف أن تلك

[1] المرجع نفسه.

[2] مولود قاسم نايت بلقاسم، إنّية وأصالة ص449.

الجهود كلها كانت ضائعة لأنّ أغلبهم –إنْ لم يكن كلّهم– قد رجعوا إلى الإسلام بمجرّد بلوغهم الرشد.[1]

فاعتبارًا من هذا التاريخ شرعت الإدارة الفرنسية في بناء الأديرة والكنائس المسيحية وتوزيع الأناجيل وشروحاتها المبسطة، وهدفها في ذلك كلّه ليس تنصير المستعمَرين فحسب وإنّما القضاء على معالم الدين الإسلامي جملة وتفصيلا، وبث الأغاليط والأكاذيب ونشر الخرفات والخزعبلات بين الأهالي، فضلا عن تنصير أكبر عدد ممكن من الجزائريين في إطار برنامج إعادة مجد الكنيسة الإفريقية الرومانية، ومواصلة عمل أجدادهم الرومان.

وبالعودة قليلا في أدراج التاريخ وإلى عام (1830م) التاريخ الذي بدأت فيه محنة ومآسي الجزائر وبالتحديد عندما توجّهت القوات الفرنسية لاحتلال الجزائر عبر المنفذ البحري لسيدي فرج الذي نتج عن تحطيم الأسطول الجزائري الذي كان حامي الحمى وجناح الأسطول العثماني الجبار في معركة "لافارين" المشهورة، اصطحب قائد الحملة الفرنسية على الجزائر الجنرال "دبورمون"[2] وبتوصية من دائرة ما عرف وقتئذٍ بالأراضي الفرنسية في الخارج –دائرة الاستعمار– التابعة للوزارة الشخصية أين تمّ انتقاء (14) شخصًا من أبرز القساوسة ورجال الدين الفرنسيين الذين كانوا يعتقدون وينقلون هذا الاعتقاد إلى الجنود الفرنسيين بأنّ الهلال –لفظ يطلقه الفرنسيون على الإسلام– فالأولوية إذًا هو تصفية هذا الدين المزعوم في الجزائر وإحلال "السمكة"

---

[1] المرجع السابق، ص450.

[2] المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر 1954 cnerh-nov54.dz.2004 .

محلّ "الهلال" محاولين العزف على وتيرة التاريخ الذين يذكّرهم بأنّ أجدادهم قد مارسوا هذه العقيدة منذ العصور العتيقة لتعود الجزائر إلى خلاص الصليب، ولذلك فإنّ النتيجة الحتمية لكلّ هذه الدعاوى هو أنّ مهمة فرنسا في الجزائر ليست استنزاف الخيرات وإنّما هي استرجاع القلوب الضالة في خطوة دينية مقدّسة، هذا قولهم بأفواههم وهيهات هيهات أن يكون الأمر كذلك.

ونظرًا لتوسع هذه الدعاوى لم يكن أمام الجيش الفرنسي إلاّ الاستجابة المساوقة والمطاوعة ها، وظهر ذلك أوّل مرّة في توكيل نابليون الثالث عندما كان رئيسًا للدولة الفرنسية أمر توسيع وتطوير جامع "كتشاوة" بعد تحويله إلى كنيسة منذ يوم "5 يوليو 1830م"[1] وهي اللحظة التي وضع فيها الجنرال "دبورمون" العلم الفرنسي على دار الدّاي وتلتها عملية هدم المساجد الجزائرية وتخريب الزوايا وما تبقى منها فقد حولوا بعضها إلى كنائس ومستشفيات معلّق على جنباتها رمز الصليب، وما لم يكن صالحًا لذلك فقد حوّلوه إلى اصطبلات لخيول الاستخراب، ويجب ألاّ ننسى —هنا– إلغاءهم ومنعهم للتعليم الديني الإسلامي واللغة العربية اللتان كانتا قبلة مقدّسة للشعب الجزائري، وهذا لا لشيء إلاّ لأنّها قد قامت بامتصاص الجهل والأمية ورفع مستوى التعلم والوعي إلى نسبة 90%[2] بشهادتهم وبالتنقيب في أعماق التاريخ — المسكوت عنه– نجد أنّ فرنسا كانت تتلقى تقاريرًا منتظمة ودورية من طرف عيونها قبل عام الاحتلال بزمن تصف وتحدّد بدقّة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدينية، وهنا أظهرت هذه التقارير بأنّ منطقة القبائل من أكثر المناطق منعًا للغزو

[1] مولود قاسم نايت بلقاسم، إنّية وأصالة ص449.

[2] cnerh-nov54.dz.2004 .

الثقافي والديني والعسكري، وهذا ما يعني بأنّ فرنسا لم ترتجل مشروع التنصير أثناء الاحتلال وإنّما قد أعدّته وجاءت به كاملا للتطبيق، وأبسط الأدلة عن ذلك أنها قد استعانت بأكثر قساوسيها دهاءً ومكرًا وإرسالهم أثناء توسعها في الوطن الجزائري ضمن ما يسمى "الآباء البيض" هذا الوصف الأخير المعروف بشكل واسع في منطقة القبائل عند جميع الناس فقد كانوا يمارسون عملية التمسيخ تحت غطاء البرانيس البيض —رمز مروءة القبائل– لئلا يثيرون شبهات قد تؤدّي بهم إلى الإعدام، فبعد إخفاء صفتهم الكهنوتية راحوا ينشرون بين الناس البسطاء والفقراء تعاليم المسيحية وينفرونهم من دين الإسلام الحنيف قاذفين إيّاه بأنّه السبب في القضاء على العرق البربري، وما العرب إلاّ غزاة جاؤوا من مكّة والمدينة ليصادروا الأراضي الأمازيغية ويدمّروا لغتهم الجميلة، ولا ننسى كذلك قدرة الاستخراب المفزعة في تمجيد الوهم وخلق الأكاذيب ودعوة الناس إلى الأباطيل، ومن أبرز الأمثلة عن هذا الذي نسرده القول بأنّ العرق الأمازيغي عرق آري أوروبي وهو العرق نفسه الذي يجري في دم الفرنسيين الكاثوليكيين وبالتالي هم إخوة فقد جاء في إنجيليهم (متّى ومرقص) [1] قولهم "أوصانا يسوع بأن نجعل من كلّ الأمم إخوانًا لنا" فكيف تكونون أعداء لنا وقد وحّدنا الدم، وإنّما العدوّ الحقيقي هم العرب والإسلام لا فرنسا والنصرانية.

وما كان لكلّ فعل ردّة فعل فقد قام جيل كامل من خيرة أبناء هذا الوطن ممثلين في رجالات الدين والإصلاح والأئمة للتصدّى على هذه الجملة الشعواء فإلى جانب المعارك الطاحنة قد ركّزوا جلّ مجهوداتهم لتحرير عقيدة الجزائريين والقبائل بشكل خاص قبل تحرير الوطن، هذه الحماسة التي وضعت فرنسا موضع الواقع

[1] cnerh-nov54.dz.2004

والفشل عمدت إلى بناء الكنائس ودور التعليم المسيحي في أغلب مناطق القبائل فضلا عن استمرار هذه الإستراتيجية لتعمّ جميع أتربة الجزائر، وبعد الاستقلال تمّ هدم كثير من الكنائس والإبقاء على عدد منها ليتمّ لاحقًا تحويلها إلى نشاطات أخرى، مثل الكنيسة الكاثوليكية في خراطة التي تحوّلت إلى متحف للمجاهد، وكنيسة أوقاس (تيزي نبربر) المهملة والقصر التي تحوّلت إلى آثار محمية، ومنها ما بعض الكنائس التي زاولت نشاطها التبشري مثل عدد من الكنائس في تيزي وزو.

د- المجهودات الموضوعية للفرنسيين في ترسيخ التبشير أثناء الاحتلال وبعد الاستقلال: إنّ الاستدامة في العودة إلى التاريخ ومساءلة أهل العلم يؤدّي بنا إلى جمع حزمة من الملاحظات وتسجيل عدد من المحطات والحقائق التي تكشف عن مسيرة التنصير والتمسيخ في الجزائر وبالأخص منطقة القبائل، وهذه الحقائق سنجعلها مرتّبة على الشكل التالي:[1]

أ- استطاع النظام الفرنسي ما بين (1876 و1878م) تأسيس وبناء أكثر من (49) كنيسة كاثوليكية و(25) خورنية، ومن أشهر الكنائس التي بنيت في هذه المرحلة كنيسة "سان جوزيف" بباب الواد، وكنيسة "سان شارل".

- وفي عام (1888م) وصل عدد الكنائس إلى (68) كنيسة كاثوليكية، لينتهي العدد إلى (121) كنيسة عام (1892م)، وقد قال أسقف الجزائر "المطران لافيجري" في إحدى تصريحاته عن مشروع النشاط التبشيري في الجزائر، ما هذا نصه "..إنطلاقًا من كنيسة السيّدة الإفريقية ستشهد الجزائر سريان النشاط التبشيري في

[1] cnerh-nov54.dz.2004

القبائل والشلف والصحراء.." ويأتي هذا التصريح تأكيدًا على العزم الدءوب للاحتلال على تنصير وتعميم هذه الحركة في كلّ أنحاء الجزائر.

– ابتداءً من عام (1871م) نلاحظ تغير واضح في عناصر إرساء المسخ المسيحي حيث لم يقتصر هذا الدور على القساوسة الرجال بل تدعّم بالعنصر النسوي، وذلك استجابة لموقف القبائل المسلمين من النساء، حيث إنّ هذه الفئة كانت قادرة على التواصل بالنساء المحلّيات والدخول إلى بيوت الأهالي دون أدنى معارضة من أرباب الأسر، وهذا الموقف يختلف تماما عن القساوسة الرجال، وهنا ظهر ما يسمى جمعية "أخوات العناية الإلهية المسيحية" أو "دور بيوفيل" التي أخذت على عاتقها التكفّل بالمدارس والملاجئ والمستشفيات وهي القطاعات التي اشتدّت الحاجة إليها في كلّ من تيزي وزو وبجاية وبرج منايل، كما نلاحظ نشاط جمعية "سان جوزيف" التي انتهت جهودها بفتح مدرسة دينية حرّة بمدينة قوارية قرب منطقة شرشال حاليًا.

ب– لقد كانت هذه الجمعيات والمنظمات والمتطوّعين الفرادى والجماعات تقوم بدورها دون كلل أو ملل، ولكنّها كانت مفتقرة إلى الوازع الإداري وبأشدّ الحاجة إلى التدعيم السياسي، والاعتراف القانوني من الإدارة الفرنسية، هذه الأخيرة التي لم تتردّد عن الاعتراف والإشادة بجهود المنصّرين الفرنسيين لينتهي هذا المسعى بوضع دستور كامل ينظّم ويشرّع التبشير.

د– بعد تحديد نوعية المبشرين وعددهم وصفتهم، وبعد دسترة مشروع التبشير في الجزائر تمّ البحث عن الموارد والقنوات المالية لإنجاح المشروع، هذا الذي لم يكن بالأمر العسير نظرًا للأغلفة المالية التي تهاطلت عليها من كلّ حدب وصوب، ومن أمثلة ذلك:

قامت الإدارة الاستعمارية بتشجيع الآباء والأخوات والجمعيات، وكان تشجيعها المادي تشجيعًا خاصًا تسارعت إليه الإدارات السياسية والجنرالات العسكرية وقساوسة الكنائس الفرنسية، حيث وصلت المساعدات الرسمية المعلن عنها في عهد الحاكم العام "شانزي" عام (1874م) إلى 90.000 فرنك فرنسي قديم، وهذا المبلغ يعتبر ثروة طائلة في هذه الحقبة في حين وصلت قيمة الغرف البرلمانية عام (1874م) إلى 445.000 فرنك، إلى جانب ما كان يمنح لهم من الميزانية التصحيحية والوزارات المختلفة في باريس التي ساهمت بقدر كبير من عائداتها ومخزونها لإنجاح المشروع وهنا نسجّل غلاف الوزارة الخارجية التي قدّمتها في شكل مساعدات سنوية قدّرت بـ 60.000 فرانك، أمّا وزارة التربية فقد التزمت بتقديم إعانات سنوية وصلت قيمتها إلى 70.000 فرنك، عام (1883م) أمّا وزارة الشؤون الدينية فقد قامت بدورها بتخصيص مساعدة سنوية بلغت عام (1884م) ما يتجاوز 50.000 فرنك، كما ساهمت العائلات البارسية المتضامنة مع مشروع التنصير بإعانات منتظمة، ومن بين هذه العائلات عائلة "الكونت شمبور" من صلب "آل بوربون" والتي منحت "للمطران لافيجري" عام (1880م) مبلغًا قدره "100.000" فرنك، وكذلك الحاكم العام "جون كامبون" الذي قدّم مبلغًا قدّر بـ"60.000 فرنك إلى لافيجري عام (1883م)، وقد وصلت نفقات التنصير بين الأهالي عام (1878م) إلى 8.870.000 فرنك.

هذه المبالغ الطائلة دون عدّ قيمة المساهمات المستمرّة من طرف الإدارة الاستعمارية للأسقفية الجزائرية التي وصلت إلى (10ملايين) والمنح التي كانت تقدّم في الخفاء وهي أكثر ممّا يحصى وجهّت كلّها نحو هدف واحد وهو تنصيل الجزائريين وتمزيق إنيتهم.

وبالعودة إلى إلى المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر 1954م، فإنّنا نجد وثائقًا تكشف عن سيرورة تنفيذ هذا المشروع ومسيرته الخاصة والمكثّفة في منطقة القبائل، هذه الوثائق التي تفضح السياسية والإستراتيجية الدقيقة التي أعدّتها الإدارة الفرنسية نحو أهالي هذه المنطقة، ويمكن تلخيص ذلك على النحو التالي:

– العمل على اقتناء أهمّ المؤلفات والكتب والمعاجم الخاصة بتعليم مبادئ المسيحية، وجلبها من أوروبا وتوزيعها على القساوسة والراهبات وإلزامهم بإتباع توصياتها في تعليم المسيحية أو ما يسمونه "التربية المسيحية"وقد تمّ توزيع بعض الأناجيل على الأهالي مباشرة، ولما كانت هذه الأناجيل مكتوبة بلغات أخرى لا تفهمها العامة لجئوا إلى بناء صرح من الخرافات، وهنا يمكن رواية عدد كبير من القصص الكثيرة والمتميّزة لكن في الغالب كانت الأخوات القائمات على قطاع الصحّة يمنحن المرضى من النساء والأطفال أناجيلا مع الأدوية والطلب منهم القيام بمجموعة من الطقوس كتقبيلها ووضعها على الرأس ومداهنة الصفحات، وتعليمهم حركة التثليث ...وغيرها.

– شرح وتبسيط النصوص المستخرجة من الإنجيل لترسيخها في أبناء الأهالي وأثناء إلتحاقهم بالمدارس التعليمية التي تمّ بناؤها من أجل هذا الغرض.

– استحداث مادة تاريخ الديانة المسيحية وتكثيفها مقارنة بالمواد الأخر.

– إعداد مطبوعة بالعربية خاصة بالتربية الدينية المسيحية على يد الراهب "تولوت"

– بدأ الحصص التعليمية وختمها صباحًا ومساءً بترتيل أبناء الأهالي لبعض النصوص المختارة من الإنجيل.

كلّ هذه المجهودات الجبارة، والجيوش الحاشدة من القساوسة والأخوات والآباء وكلّ هذه الكنائس التي تمّ بناؤها والمساجد التي خرّبت والزوايا التي دمّرت،

والأموال المتدفقة التي نفقت والمدّة الطويلة التي مورست إلاّ أنّ ذلك كلّه لم يزد القبائل إلاّ تمسّكًا بـ"لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله" ولا ننفي إطلاقًا عدم استجابة بعض الأفراد الذين سايروا هذا الطرح سواء أكان ذلك جهلا أم إكراها أم حاجة إلاّ أنّ المشروع لم ينجح إطلاقًا، وذلك يعود في نظرنا إلى سببين هما:

أ– تمسّك أهل هذه المنطقة بعاداتهم الدينية والاجتماعية واعتبار أنّ كلّ ما يأتي من الفرنسيين الذين اختبروا ظلمهم يعتبر حرامًا، وقد كان شعارهم في ذلك "عش حرًّا أو مت وأنت تحاب فرنسا من أجل الحرية".

ب– لقد اعتبر القبائل كلّ شخص أو فرد يتعامل مع فرنسا خائنًا وبالتالي فهو محكوم عليه بالإقصاء من الجماعة، فلا يخالطونه ولا يكلّمونه، ولا يصاهرونه مع فتح المجال لتصفيته متى أتيحت لهم الفرصة لذلك.

هـ– الخطّة الفرنسية والصليبية الحديثة في منطقة القبائل: يبدو أنّ العجوز فرنسا قد فهمت الدرس التاريخي بشكل جيّد وها هي تستثمر هذا الفهم في تغيير خططها التي تهدف –دائمًا وأبدًا– إلى خدمة مشروع التبشير، وهذه المرّة سنجدها تعتمد على فكرتين مهمّتين، هما:

أ– فكرة الانفصالية: والدعوة إلى تكريس قانون حق الشعوب في تقرير مصيرها، وللأسف الشديد فقد تمكّنت فرنسا من صنع دعاة هذه الفكرة ونشرها في منطقة القبائل مستغلة في ذلك الفراغ السياسي في الجزائر تجاه هذه المنطقة، واستطاعت أن تجد لها أتباع من أبناء المليون ونصف المليون شهيد وتمثّل ذلك في بعض السياسيين والأدباء والشعراء والمغنّين والمشوّشين، وتمرير برنامجها التخريبي من خلالهم متمسّكة بالدعوة القديمة التي مفادها اختلاف العرق واللغة، بل أكثر من ذلك فإنّها قد تجرّأت على إقامة ما يسمى

"الأكاديمية البربرية" عام (1963م) والتي نتج عنها ترجمة الإنجيل باللغة الأمازيغية، ولسوء الحظّ فقد كانت هذه الترجمة أسبق من ترجمة معاني القرآن الكريم وهو أولى، كما أنها قامت بتدعيم وتمويل وتحصين بعض الجمعيات المتطرّفة التي تنادي إلى الانفصال مثل جمعية (M.A.K) و(M.C.B) التي يتزعمها قادة من أبناء المنطقة، والقيام بمساومات خطيرة أشدّ ما تظهر عليها من جحود ونكران مساومة قضية تحرير المرأة في جامعتي مولود معمري بتيزي وزو وجامعة عبد الرحمن ميرة في بجاية.

ب– النهش الجمعوي والتهريج الإعلامي: وهنا نلاحظ تدخل تأسيس جمعية "إرسالية رولاند" وكنيسة فلادلفيا" التي تقطن في مرسيليا وتشرف على نشاط تبشيري أطلقت عليه تسمية "اليقظة في الجزائر" وجمعيات أخرى مثل: "منتدى القساوسة"، "جمعية الربّ الجزائرية"، "الكنيسة الإنجيلية الحرّة"، ولكن أخطرها جميعًا هي "الجمعية المسيحية للتعبير البربري" المؤسسة في الجزائر عام (1987م)، ومن أهم إصداراتها أشرطة سمعية وبصرية، ترجمات أمازيغية ميسرة للإنجيل، والأناشيد ...الخ، أمّا البهرجة الإعلامية فقد لاحظنا إذاعات عديد تحاول خدمة هذا المشروع من شاكلة "إذاعة المحبّة" وإذاعة "شمال إفريقيا" التي تتعاون مع مجموعة من المنظمات التبشيرية الدولية مثل الـ(ACEB) و(arabvision) و(قناة الحياة، والمعجزة، وسات7، وmtv)، وغيرها، ولكن الخطر الحقيقي لا تمثّله هذه القنوات وإنّما تمثّله بعض الجرائد المكتوبة والمجلاّت التي تشهّر بهذه الظاهرة جهلا من خلال تقديمها للنسب المغلوطة والمبالغة من المرتدّين، والمتاجرة بهذه الأخبار مع إشاراتها للمبالغ المالية التي تُقَدّم للمتنصّرين.

و– منطقة القبائل اليوم: إذا تحاول بعض الجبهات والجهات تقديم صورة مشوّهة تعلّق عليها أصوات مبحوحة مسعورة لمنطقة القبائل وقذفها بالغي وتكفيرها

بين الأمم والشعوب، وللأسف فإنّ بعض هذه الشعوب قد صدّقت هذه الأباطيل، ولنا في إخواننا الجزائريين خير مثال على ذلك، دون تجاهل الحقد الدفين التي تكنّه قناة الجزيرة للشعب الجزائري ككل، وقد ينسى العالم كلّ أحقاده ولا ينسى الشعب الجزائري ذلك الاستفتاء الملعون الذي قامت به هذه القناة حول "تكفير الجزائريين وجواز سفك دمائهم" كما أنها عمدت في تغطيتها لحادثة "هدم مسجد أغريب" في تيزي وزو إلى التعبير بملء شدقيها عن تكفير هذا الشعب، هذه المخافات لا تختف عمّا تنشره وكالة "الأسو سيتد برس" لعام (2004م) من أنّ المسيحية بخير في منطقة القبائل وأن في تيزي وزو فقط أكثر كم (15) كنيسة ناشطة تفتح أبوابها لأكثر من (35%) من سكانها، ولا يختلف هذا الزعم عمّا روّجت له الوزارة الخارجية الأمريكية من أنّ عدد الجزائريين غير المسلمين يتجاوز 500.000 نسمة يمارسون شعائرهم المسيحية في أكثر من (300) كنيسة أكثر من (68%) في منطقة القبائل، وكلام كثير وإحصاءات جمّة بعضها قريب إلى الصحّة وأغلبها تجارة سياسية أخذت من الجزائر والقبائل بالذات رهانًا تعوي بها، لكن الغريب أن الوكالات الإسلامية والمنظمات الدينية وحتى الأحزاب السياسية سلّمت بهذه الأقاويل وقبلت بهذه الشتائم كأنما الذي يحدث واقع في مجرّة أخرى لا تعنينا لا من قريب ولا من بعيد ولم يقم لتصحيح هذه النسب وإبطال هذه الأقوال إلاّ فئة قليلة من بعض الجامعات الإسلامية من خلال ملتقيات وأيام دراسية لهذه الظاهرة، ووزير الشؤون الدينية الذي عبّر في كلمة له بتاريخ 20 جويلية 2010م الذي لم ينفي هذه الظاهرة عن هذه المنطقة ولكن الإحصاءات التي تروّج اعتبرها مبالغ فيها، ونحن نثمّن هذه الملاحظة لأنّنا إذا سلّمنا بوجود (100) كنيسة في منطقة القبائل فإنّه يتوجّب علينا –أيضا–

الاعتراف بأنّ عدد المساجد في بجاية وتيزي وزو يفوق عدد المساجد والزوايا في أيّ منطقة أخرى من الجزائر، حيث وصل عدد المساجد إلى (785) مسجدًا مرسّمًا وأكثر من 386 مسجد غير مرسم، ليصل العدد الإجمالي إلى (1171) أضف إلى ذلك (40) مسجدًا في طور الإنجاز، ممّا يعني وجود (1211) مسجدًا في منطقة تيزي وزو وبجاية فقط، وعدد (22) زاوية منها (18) زاوية عاملة على مدار السنة وتقوم بتخريج الأئمة والخطباء، كما قرّرت وزارة الشؤون الدينية تدعيم المنطقة بـ(140) إمامًا مكوّنا تكوينًا خاصا، كما أنّ هذه المساجد أصبحت حاليا تستقبل حوالي (50%) من قدرتها الاستيعابية كلّ يوم وفي مختلف الصلوات اليومية، وتسجّل فائضًا من المصلين في المناسبات الأسبوعية "الجمعة" يصل إلى (90%)، في حين يصل عدد الفائض في شهر رمضان إلى (110%)، ناهيك عن صلات العيدين التي تقترب إلى (200%) من الفائض، كما أنّ هذه المساجد تقوم باستقبال النساء والعجائز خصوصًا في القرى والمداشر ضمن المشروع الوطني لمحو الأمية، فأين هي المسيحية ومن أين لهم كلّ تلك النسب المفزعة.

ز– الحلّ المقترح: من خلال هذا العرض الموجز لظاهرة التنصير نقول إنّ الحقيقة التي يغفل عنها الناس هي بثّ التنصير في أغلب المناطق الجزائرية وبخاصة الصحراء والشرق الجزائري، وقد استغلّ مروجو هذه الظاهرة الانفتاح السياسي في منطقة القبائل ليخفوا بظهورهم مشروعًا كاملا للتنصير في المناطق الغربية والداخلية وهي تعمل في صمت وروية، ومن أبرز الحلول التي تكبح هذا الطموح الجامح هو ما جاء في خطاب الرئيس الجزائري بمناسبة تظاهرة "تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية" حيث ركّز على فكرة تصحيح صورة الإسلام والمسلمين، ونحن بدورنا نثمّن هذا
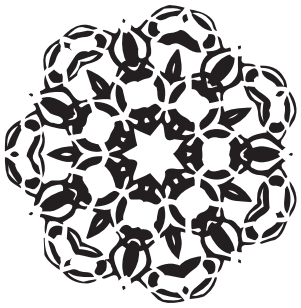
الاقتراح نظرًا لما صنعته بعض الجماعات المتطرّفة باسم الإسلام، أين أصبحت كلمة المسلم تعني "الإرهاب" وهذا المسعى يجب أن تكرّس له جميع القوى من الوزارات والجامعات والمساجد وترسيخها من خلال المؤسسات التربوية والملتقيات والندواة الوطنية والعالمية والأيام الدراسية والأسابيع الثقافية، وإعداد مسابقات وطنية ونشاطات جمعوية، وتكريس الإعلام بكلّ أنواعه، ورقابة الكتب والمجلاّت الدينية، وتكوين الدعاة، كلّ هذه الشرائح التي يجب أن تستجيب إلى هذا النداء في شكل مشروع وطني مدروس بشكل دقيق، وضمن إستراتيجية علمية مضبوطة بنص قانوني.